النكبة والعودة في سؤال فلسطين الثقافي

أحمد دحبور

يمكن القول إن ثقافة العودة لدى الشعب العربي الفلسطيني ، قد وجدت لميلادها تاريخاً رسمياً وعملياً ، هو السادس عشر من الشهر الخامس لسنة ١٩٤٨ . وهو اليوم التالي مباشرة لما اصطلح عليه التاريخ الحديث باسم يوم النكبة . وليس تاريخ ميلاد ثقافة العودة هذا جزافياً أو انفعالياً ، ولكنه دال على أن فعل الاقتلاع الذي رافق النكبة ، جاء هجومياً بضاغط خارجي. وليس كثقافة الحنين التي اشتهر بها أدباء المهجر العرب من لبنانيين وسوريين وغيرهم . فأولئك مثقفون رافقوا مجموعات من شعبهم كانت تهاجر إلى الأمريكيتين ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، نأياً عن الحكم العثماني آنذاك وبحثاً عن ظروف أفضل من حيث الأمان والعمل والعيش الكريم . وما إن استقر بهم المقام ، حتى عاودهم الشوق إلى مسقط الرأس ، فراحوا يكتبون وينشدون ، بل يعدون العدة ، ولو نفسياً ، للعودة إلى الوطن عندما تتاح الظروف الميسرة .

أما في الحالة الفلسطينية ، فإن الأمر يتعلق باستعمار استيطاني إجلائي ، توج بعملية عسكرية رافقتها مذابح يومية كان أشهرها مجزرة دير ياسين يوم ١٩٤٨/٤/٩ . وحين تدخل العرب وخاضوا الحرب على النحو الهزيل المهين المعروف ، كانت المؤسسة الرسمية العربية تبدو كمن يستعد للهزيمة ويوطن النفس على استقبال جموع اللاجئين الفلسطينيين الموعودين بعودة قريبة ، حتى أن التاريخ الشعبي السائد كان يصف النكبة في أيامها الأولى بأنها رحلة الأيام السبعة . لأن الحكام ، في مدعى الشعارات الفارغة ، كانوا سيعيدون الأرض إلى أصحابها بعد أسبوع على الأكثر . بل إن بعض الضباط كانوا يشيعون في أوساط الفلسطينيين أن ما عليهم إلا أن يغادروا في النهار ليعيدهم الجيش في الليل . ولكن مع إعلان بن غوريون عن قيام دولة إسرائيل يوم ١٩٤٨/٥/١٥ ، كان قد بات كل شيء واضحاً للعيان ، فالرحلة ستطول ، بل إن الكهول الفلسطينيين كانوا يتساءلون عما إذا كان وداع الوطن فراقاً ، لا لقاء بعده ، فيقول أبو سلمى مثلاً:

كلما قلت : أطل الفجر ، غابا أترى تغدو فلسطين سرابا ؟

وثقافة العودة قد بدأت عملياً ، بالنصوص المتفرقة التي كان يكتبها الأدباء والشعراء ممن عايشوا محنة الرحيل . لأن واقعة الهجرة كانت مقدمة لتوابع زلزال النكبة ، فلم يكن الأديب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشاهد مجرد واصف لرحلة قد تطول أو تقصر ، بل كان مؤرخا ، بالشعر والنثـــر ، لحيـــاة جديدة سترافق الفلسطينيين إلى مدى غير منظور. وهي حياة ستلغي تقاليد وتحيي تقاليد جديدة. ولشاعرة مثل سلمى الخضراء الجيوسي مثلاً ، أن تثبت هذه الحقيقة ببساطة أنها مـــا عـــادت تستطيع حتى أن تمنح السائل قروشاً معدودة ، لأنها أصبحت من شعب منكوب يســـتحق تلـــك المعونة :

منذ ذاك اليوم لم أمنح قروشي سائلاً،

فبنو عمي أمسوا لاجئين

ويستطيع المراقب أن يرصد شهادات شعرية متباينة الموقع والأداء ، على لحظـــة الهجـــرة . فمن متفجع مثل عبد الرحيم عمر يعترف بالمفاجأة : " ما هكذا كنا أردنـــا الخاتمـــة " . إلـــى متماسك يحاول أن يزرع الأمل فيمن حوله وهو لا يكاد يخفي لوعته ، كما في قـــول كمـــال ناصر في الدمعة الحاقدة :" سألتك بالكبر لا تسفحيها – ولا تطرحيها – وضمي عليها العيون – فأنت عليها وفيها – إلى أرضنا ترجعين " ، إلى من يستحضر صورة الطفولة يوم التشـــرد ولم يكن قد وعى ، بعد ، هول ما يحدث ، كما في شهادة توفيق صايغ :

لم أكن أدرك بعد

ما الأبعاد ما الوطن

عندما السيف الأول ارتفع

... وحملوا ثمينهم والنادر – وحملتني

وليست هذه الشذرات إلا عينات من شهادات شعرية فلســـطينية شـــتى . وإذا كانـــت القصـــة القصيرة الفلسطينية كانت لا تزال في مهدها ، فإن هذا لا ينفي وجود قصص ترصـــد لحظـــة النكبة واثرها في اللاجئين ، مثل " الخروج من الجنة " و " الأرض الطيبة " و " قصة لم تتم " لمحمود سيف الدين الإيراني . أو " خبز الفداء " و " في الطريق إلى برك ســـليمان " لســـميرة عزام ، وهما قصتان مستوحاتان من المقاومة الباسلة ، شبه اليائسة ، التي أبداها الفلســـطينيون قبيل النكبة ، وقد كتبت سميرة بعد ذلك نصاً طويلاً نسبياً بعنوان " وجدانيات فلسطينية " هـــو مزيج من قصة وشعر وتأملات تتابع وقائع النكبة وتؤكد أمل العودة . أما الكتابات التالية التي تعمق معنى اللجوء والعودة ، فستظهر بعد بضع سنوات من النكبة ، عندما يكون الجـــرح قـــد كشف عن عواقبه . ومن تلك الفترة نتذكر قصة " مجنون الجرس " الذي تتـــابع فيـــه ســـميرة عزام عذابات الفلسطيني الذي كان يقرع جرس الكنيسة في عكا ، فاختلط عليـــه الأمـــر بعـــد الهجرة ، ورأى الناس لا يعرفون كيف يكون صوت الجرس الحقيقي ، فهرع في إحدى بقـــاع الشتات إلى كنيسة ، في غير موعد الصلاة ، وراح يقرع الجرس بعصبية حتى أيقظ الحي في حالة من الفزع ، وكأن تلك الحركة العفوية المتهورة رمز لايقاظ النيام على واجب العودة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عكا ، أما غسان كنفاني فإنه لم يكتف بقصة أو قصتين ، بل كرس بعض مجموعاتــه لمعنــى العودة ، وهو ما نلحظه حتى من عناوين بعض كتبه " أرض البرتقال الحزين – عالم ليس لنا – عائد إلى حيفا " وغيرها .

عائدون لاجئون

سيلفتنا في المشهد الثقافي الفلسطيني. ولاسيما فــي المســتوى الشــعري منــه ، أن الحنــين والإصرار على العودة ، لم يكونا مقتصرين على من شردوا عام ١٩٤٨ فالتــاريخ يقــول أن فلسطين قد وقعت في يد الإحتلال على مرحلتين ، وأن أهل الضفة والقطاع لــم يتعرضــوا للتشرد يوم نكبة ١٩٤٨ ، فهم لم يدخلوا المقلاة على حد تعبير غسان كنفــاني – حتــى عــام ١٩٦٧ . ولكننا مع ذلك – وهذا طبيعي – نرى الشعراء الفلسطينيين يعبرون بقوة وحساســية عالية عن جرح النكبة والهجرة حتى لو كان بعضهم لا يزال مقيماً في مدينته . بل إن عناوين كتب هؤلاء تشي بمعنى النكبة ، مثل " جراح تغني " لكمال ناصر ، و " عائــدون " ليوســف الخطيب " و " عودة الغرباء " لهارون هاشم رشيد ، مع أن الأول من بيرزيت ، والثاني مــن الخليل ، والثالث من غزة ، وهذه المدن لم تكن قد أحتلت بعد ، عندما كتب يوســف الخطيــب متفجعاً منتظراً ساعة العودة :

لو قشة مما يرف ببيدر البلد
لو وردة بيد ومزقة سوسن بيد
خبأتها بين الجناح وخفقه الكبد
أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمد ؟

وذهب هارون هاشم رشيد إلى استقطاب مشاعر العرب جميعاً على إيقاع صوت فيروز فــي قصيدته الشهيرة " سنرجع يوماً إلى حينا " . أما جبرا إبراهيم جبرا ، وهو ابن بيت لحم التــي كانت لا تزال في أيدينا عام ١٩٥٩ ، فقد كتب في ذلك العام يستلهم يوم العودة : " بيتنــا فــي رأس التل – حجر على حجر – أبيض في شمس الضحى – أخضر في ضوء القمر – وبــين الليل والليل لا – نعرف إلا الانتظار :- رباه جد علينا – جــد علينــا – بنقمــة الانتظــار " فالانتظار نقمة بما يسبب من ألم ولوعة – ولكن الفلسطيني المكابد يطلب هــذه النقمــة لأنــه يرفض النسيان :

وذلك البيت رغم الجبال التي بيننا
أراه مشرئباً بين الشجر ، حيث العدو
يقطف رماننا وتيننا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما معين بسيسو الي نذر شعره وعمره للنضال الوطني ، فقد كانت أعماله الفلسطينية تملأ الوجدان الشعبي ، فلسطينياً وعربياً ، قبل هزيمة ١٩٦٧ التي أودت بمدينته غزة ، فكتب " ديوان المعركة " عام ١٩٥٢ ، وفلسطين في القلب عام ١٩٦٤ ، والأشجار تموت واقفة عام ١٩٦٦ ، وفي هذه المجموعات لا يميز القارئ بين أن يكون معين هو ابن غزة أو حيفا ، فالجرح الفلسطيني واحد منذ وقوع النكبة ــ تماماً كما هو حلم العودة واحد . وهو ما سيقع القارئ عليه حين يقرأ شعر فدوى طوقان النابلسية التي كانت مدينتها غير محتلة بعد ، عندما كتبت تستنكر فكرة الفرح في العيد ، ما دام بعض الوطن تحت الاحتلال :

لا الدار دار ، لا ولا كالأمس هذا العيد عيد

هل يعرف الأعياد أو أفراحها روح طريد ؟

وسيكرس علي هاشم رشيد ، الشقيق الأكبر لهارون ، مجموعة كاملة لفكرة العودة ، وهو ابن غزة ، فيصدر عام ١٩٦٠ ، مجموعته " أغاني العودة " . وهو وإن لم يقع بين براثن النكبة المباشرة ، إلا أنه يرى ما حل بأهله وذويه اللاجئين إلى غزة من يافا والمجدل واللد والرملة والقرى المنكوبة ، يزورهم في خيام اللجوء ، وينشد :

أراكم بعيني تحت الخيام فترعاكمو روحي الحانية

وتلك الرياح تثير القتام وتعصف بالخيمة البالية

من الضروري أن نلاحظ هنا ، أن معنى العودة متضمن في طبيعة المعاناة . فحنين البيت المشرئب ، والعيد المحرم على اللاجئين ، والخيمة البالية ، ليست إلا إشعاراً بضرورة العودة المرتقبة . وكثيراً ما اختلط المصطلحان: نكبة ، عودة ، حتى التحما في دلالة واحدة ، وعلى المستوى الشخصي ، كنت أظن حتى وقت قريب أن إسم مخيمنا في حمص هو مخيم العائدين ، لأكتشف أ ن الإسم الرسمي له هو ثكنة خالد بن الوليد للاجئين الفلسطينيين . ولكن الخطاب اليومي التلقائي أحل كلمة العائدين محل اللاجئين . وسيظهر هذا الانزياح في الأدب الفلسطيني غير مرة . فها هو علي الخليلي مثلاً نراه عام ١٩٧٧ – أي بعد عشر سنوات من الهزيمة التي احتلت بموجبها مدينته نابلس – يصدر مجموعة بعنوان " نابلس تمضي إلى البحر " كناية عن انتساب مدينته إلى نادي المدن الفلسطينية الساحلية المحتلة مثل عكا وحيفا ويافا .

من الأسى إلى الجنون

لم يكن قارع الجرس في قصة سميرة عزام المشار إليها ، مجنوناً كما يقول عنوان القصة ، ولكن القيام بعمل مفارق للمنطق السائد هو أمر بمثابة الجنون من وجهة النظر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحايدة التي لم تتعمق المعنى ، فالأساس هو الحزن العميق الذي برح بهذا اللاجـــئ الـــذي لا يستوعب معنى أنه قد أصبح بعيداً عن عكا ، وليس في الأفق ما يشير إلى عـــودة قريبـــة ، وهي حالة عبر عنها أبو سلمى بمزيج من الأسى ومعاتبة الزمان :

إلى متى وأرضنا تنتظر طال السرى ، وما أطل القمر ؟

وإذا كان هذا الانتظار حزناً كامداً وأسى سلبياً ، فإن دورة الحياة اليومية على اللاجئ ، تمده بأسباب المفارقة وعدم التلاؤم . فالواقع الجديد لا يقتصر على الانتقال من مكان إلى آخر . بل هو ضاغط نفسي اجتماعي وطني يذكر هذا اللاجئ بأنه مختلف دوماً عن المحيط الذي وجـــد نفسه فيه ، حتى أن فدوى طوقان ترى في بهجة العيد مجرد مناسبة " العيد الميتـــين " . أمـــا سميرة عوام فتكتب قصتها " بالمزاد العلني " بعد عامين من النكبة لتضعنا أمام لحظة خاصة ، عندما تصطدم فتاتها الفلسطينية اللاجئة إلى العراق ، بأسره يهودية تبيع أثاث البيت ، لتـــتمكن من الهجرة إلى فلسطين ، وسيختصر حسن النجمي هذا الوضع الذي طرأ على الفلســـطينيين ، بكلمات قليلة محددة :

لم يبق ما يقال

الأرض غير الأرض في بلادنا

وغيرهم في أرضنا الرجال

ليس معنى هذا اللا تلاؤم أن اللاجئ يضمر شعوراً غير ودي تجاه العرب الذين لجـــأ ، غـــداة النكبة ، إليهم ، ولكنه كان محكوماً بذكرى مجافية للأمس القريب عندما كان له وطن شأن بني البشر . وهو ما يدفعنا إلى قراءة الشكوى و التأفف وعدم التلاؤم مع الوضع الجديد ، كتعبيـــر عن رغبة في العودة ، زد على ذلك أن ما يعمق الغربة لدى الفلسطيني كان يتجاوز المشـــاعر الوطنية التلقائية ، إلى لحظة إجرائية يتعذر فيها الحصول على ما يلبـــي الحاجـــات الأوليـــة للإنسان . فها هو توفيق صايغ ، يضيع في منفاه ، غير قادر على الحركة ، لأنـــه لا يملـــك جواز السفر الذي يؤهله للدخول إلى أي بلد حتى يتمكن من العمل :

ولا تملكه

فلا دخول

وهي التجربة التي تتمادى في قسوتها على أبطال غسان كنفاني ، في روايته القصيرة الشهيرة " رجال في الشمس " حتى يموتوا مختنقين في الخزان الذي حاولوا الاختفاء فيه ليتمكنوا مـــن العمل . وقد تبدو هذه الرواية علامة فارقة تدل على المعانـــاة بعـــد النكبـــة ، إلا أن النظـــرة المتعمقة لدلالة المأساة ، تقول إن هذا الموت الفاجع كان سببه الرحيل في الاتجاه المعـــاكس ، ليكون الرحيل المطلوب حقا ، هو " الرحيل في اتجاه العودة " كما يقول خالد أبو خالـــد فـــي إحدى قصائده المطولة . ولما لم تكن أسئلة اللاجئين قد نضجت إلى حد إيجاد آلية ناجعة لفكرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العودة ، فقد كان على المشهد الثقافي الفلسطيني أن ينتظر كتباً من نـوع " النكبـة والبنـاء " للدكتور وليد القمحاوي الذي حلل الماساة وفكك فكرة النكبة ليعتبر العودة اساساً للبناء . وقـد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٦ . وقبل هذا الكتاب وبعده ، واصـل مصـطفى مـراد الـدباغ مشروعه الموسوعي " بلادنا فلسطين " في أحد عشر مجلداً صـدرت تباعـاً بـين ١٩٤٧ و ١٩٦٥ . وبموازاة هذا السفر الجغرافي التوثيقي ، لتثبيت صورة فلسطين بما كانـت ، كانـت هناك جهود تؤكد الحضور الفلسطيني من خلال التراث الشعبي والفلكلور كالمشـروع الـذي أنجزه نمر سرحان بعنوان "موسوعة الفلكلور الفلسطيني " وكان قد بدأه عام ١٩٧٧ ، واحتاج إلى ثلاثة مجلدات لإنجازه بين ١٩٧٧ و ١٩٨٩ . وكانت فكرته الأولى قد بزغت عام ١٩٦٨ مع صدور كتابه "أغانينا الشعبية في الضفة الغربية " .

وإذا كانت هذه الأعمال التاريخية ، الجغرافية ، الفكرية ، الحقوقية ، الثقافيـة تبـدو كالحفر في الصخر لتثبيت الحضور الفلسطيني متعالياً على الأسى واستدرار الشـفقة ، فـإن الشعر كان يذهب في اتجاه الوجدان وتفجير المشاعر ، فيضع شاعر من الرواد مثـل محيـي الدين الحاج عيسى خلاصة تجربته في ديوان " من فلسطين وإليها " ويصدر حسن البحيـري عدداً من المجموعات الشعرية تتصدرها " حيفا في سواد العيون " ويتوج أبـو سـلمى شـعر النكبة بمجموعته " المشرد " . إلا أن الشاعر الفلسطيني الذي فاض به الكيل بعـد عقـد مـن النكبة أو يزيد ، كان قد بدأ يغادر منطقة الحنين والشكوى ، على نبرة جديدة تتميز بالغضـب وتقريع الذات للبعد عن الوطن ، فيقول يوسف الخطيب :

أنا مجرم ، أنا حاقد ، أنا سيئ حتى نعود إلى ذويها الدار

ويحتج كمال ناصر على انصراف العرب عن فكرة التحرير والعـودة إلـى مواقـع دفاعيـة كمقاضاة كيان الإحتلال على تحويل مياه نهر الأردن فيقول :

وفلسطين والجراح دوام كل علج عنها بها مشغول
فلسفوا منطق الخيانة دهراً فتساوى التحرير والتحويل

أما حسن البحيري المتعلق بحيفا التي يسميها جوسق الإلهام ، فقد بكاها طويلاً ، وأرسل شعره صرخة غضب ونقمة على الهوان العربي ، حتى وصل به الأمر صراحة إلى انتخاب الجنون بديلاً لعقلانية مدعاة تزين النسيان وسيلة للنكوص وإسقاط حق العودة فيقول ما يزعزع رزانة الشيوخ والحكماء :

فامض يا شرق فالثعالب أمسى يتنزى خداعها في الجلود
امض يا شرق للجنون وحيداً ما أرى اليوم ذا الحجا بالرشيد
إن يك الحلم بالإباء حميداً فهو عند الهوان غير حميد

وسرعان ما يتحول الجنون عنده إلى مطلب يحتاجه اللاجئ حتى لا ينسى حقه :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنت في حاجة إلى كل مسٍ يقدح الزند في صفا الجلمود

إن فكرة الجنون ، بما هي لحظة انقلاب على عقلانية الانسحاب والتخاذل ، قد وجدت بذرتها الأولى في أمثال قصة " مجنون الجرس " المبكرة لسميرة عزام ، وبلغت ذروتها في سخط يوسف الخطيب وكمال ناصر ، ولم يتنكر لها شيخ وقور مثل حسن البحيري ، لنرى ، بعد سنوات طويلة من المعاناة والعناد كيف يعيد محمود درويش إنتاجها في وهج الحداثة :

حاصر حصارك،

بالجنون وبالجنون و بالجنون

ذهب الذين تحبهم ، ذهبوا فإما أنا أتكون

أو لا تكون

وغني عن الإشارة أن هذا الجنون هو منتهى العقل . فنداء العودة مكلف حتى أن الأعمام ، وهم رمز العقل التقليدي المحافظ ، يتهمون من يصغي إليه بفقدان الرشد . ولهذا كان على حامد أن يكف عن سماع قصص أولئك الأعمام في إحدى قصص غسان ، فيما يعطي يوسف الخطيب مجموعاته الشعرية الأخيرة إسماً جامعاً في دلالته ، هو " مجنون فلسطين " ،، ويعمد سميح القاسم إلى حركة شعرية فريدة تختزل فكرة العودة إلى فلسطين كاملة ، فيرسم بالقلم الرصاص خريطة الوطن من راس الناقورة إلى رفح ، ومن نهر الشريعة إلى البحر الأبيض المتوسط ، ليطرح سؤالاً في أسفل الخريطة ، وهو سؤال يغني عن أي جواب :

أكثير هذا يا ربي ؟

أما الشعراء الشعبيون فقد تعودوا على كتابة القصائد الطويلة التي تضم أسماء مدن فلسطين وقراها بالتفصيل . والشيق أنه مع أن المدن والقرى لا تتغير ، إلا أن الجمهور الفلسطيني يتحمس لكل قصيدة جديدة من هذا النوع كأنه يسمعها لأول مرة ، وبهذا يكون حق العودة فطرياً وتلقائياً لدى هذا الشعب العنيد العصي على اليأس منذ ١٩٤٨/٥/١٦ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الغربة في الوطن

لا تكتمل صورة المشهد الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨ ، إلا بالتوقف عند بضع مئات من آلاف الفلسطينيين الذين بقوا في الجليل والمثلث والنقب ، ليتحولوا بين ليلة وفجر إلى أقلية قومية يبلغ تعدادها اليوم مليوناً وربع المليون من البشر . وقد بدأت مشكلة هؤلاء الاهل مع الاسم الذي أطلقته عليهم سلطة الأكثرية الصهيونية الطارئة . فهم عرب إسرائيل تارة ، وسكان الخط الأخضر تارة ، والأقلية القومية دائماً . أما نحن ، أهلهم الذين انشطروا عنهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بفعل الشتات ، فنسميهم عادة عرب ٤٨ . ولهؤلاء القوم حصة شديدة الخصوصية من النكبة ، فهم لم يهاجروا حتى تكون العودة قضيتهم الأولى . ولكنهم أوذوا وتم ترحيل بعضهم من مسقط الراس إلى أماكن جديدة داخل فلسطين نفسها ، بهدف خلخلة التركيب الديمغرافي الخاص بهم ، والكثافة الفلسطينية التي تميز بقاءهم في الوطن ، وإذا وضعت الظروف المعقدة هوية إسرائيل في أيديهم ، فإنها حرمتهم من كثير من حقوق المواطنة ، فبعضهم يقطن قرى غير معترف بها ، وبعضهم حالت الضائقة دون استكمال تعليمهم ، فضلاً عن سنوات الطوارئ التي لازمتهم زهاء ربع قرن فعرقلت تحركاتهم وضيقت عليهم أبواب الرزق ..

وكانت مفاجأة لم يحسب لها الحاكم الإسرائيلي حساباً ، عندما انبثقت بين هؤلاء الأهل ظاهرة أطلق عليها الشهيد غسان كنفاني اسم الأدب المقاوم ، ووصف يوسف الخطيب اشعارهم بأنها ديوان الوطن المحتل . وقد تأخر وصول أصواتهم إلى خارج فلسطين حتى ما بعد ١٩٦٧ . وذلك لسببين : الأول هو طبيعة الحكم العنصري الصهيوني الممعن في التضييق عليهم إلى أن فلت الأمر من يد الحاكم بعد اتصال الضفة و القطاع بالجليل والمثلث والنقب ، والثاني ان كبار السن نسبياً منهم – أمثال إميل حبيبي وتوفيق زياد – كانت شهرتهم مركزة في البداية داخل إطار النضال الوطني أساساً ، أما الذين كانوا فتية غداة النكبة – أمثال محمود درويش وسميح القاسم وسالم جبران وتوفيق فياض ونزيه خير وسميح صباغ وغيرهم – فقد احتاجوا الى عقدين من الزمن حتى ينضجوا وتتضح ملامحهم الادبية . وقد ارتبطت أسماء هذه الكوكبة الفلسطينية من الأدباء بظاهرة الأدب المقاوم ، ما أتاح لمن هم أكبر منهم سناً – امثال راشد حسين وحنا أبي حنا وفوزي الأسمر - أن يلتحقوا بهذه التسمية المميزة .

وقد فوجئ هؤلاء الأدباء الفلسطينيون ، كما فوجئنا في المنفى ، بحفاوة الاستقبال العربي لخطابهم ، لا سيما وأن انتشارهم قد تزامن مع بروز مشهد المقاومة الفلسطينية على مستوى الوطن العربي ، بل والعالم ، ويقول محمود درويش :

ما كنت أعلم أن تحت جلودنا ميلاد عاصفة وعرس زلازل

وكان عليهم أن يشتقوا موقعهم من اللحظة الفلسطينية الملتهبة ، حسب تجربة كل منهم وفق بيئة وطنية متطلبة تنادي باستقلال الشخصية الوطنية وارتباطها بالقسم المطرود اللاجئ من الوطن ، فضلاً عن انتمائها العربي. فيكتب إميل حبيبي روايته الفريدة " الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل " ليرصد محنة هؤلاء الأهل في أعقاب النكبة ، وتشردهم داخل الوطن وغربتهم فيه ، وذلك عندما تابع رحلة المتشائل من حيفا إلى جنوب لبنان وعودته إلى الوطن عبر تضاريس الألم والمعاناة وخطر الانقراض . وهو ما سيشهد عليه ، ولكن بأسلوبه المختلف ، محمود درويش في كتابه " يوميات الحزن العادي " ، إذ يرصد رحلة أسرته إلى جنوب لبنان بعد النكبة ، وإصرار أبيه على العودة بعد ذلك . وقد فوجئت الأسرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المنكوبة في وطنها بان قريتها البروة – من قضاء عكا – قد مسحت عن وجه الأرض ، فهامت الأسرة على وجهها في كفر ياسيف ودير الأسد ، واستقر الشاعر في حيفا ، حتى غادر الوطن ، بفعل ظروف مختلفة ، عام ١٩٧١ . وقريباً من هذه المعاناة يلفتنا محمد علي طه المولود في قرية ميعار الجليلية . وقد خرجت منها أسرته تهجيراً لتستقر في قرية كابول ، من قضاء عكا .. وبذلك تكون صورة المهاجرين داخل وطنهم قد شملت قطاعات واسعة من هذا الشعب ، وسيظهر هذا كله في الخطاب الذي اتفقنا على تسميته بالأدب المقاوم .

من جهة العلاقة بالوطن ، يتميز هذا الأدب بالتمسك بالأرض ، كأن يقول توفيق زياد :

وقفت بوجه ظلامي يتيماً عارياً حاف
وصنت العشب فوق تراب أسلافي
فلسطينية شبابتي أطعمتها أنفاسي الخضرا
وموالي عمود الخيمة السوداء في الصحرا وضجة
دبكتي شوق التراب لأهله في الضفة الأخرى

وفي السطر الأخير إشارة واضحة إرتباط ارتباط الشاعر – وهذه الشريحة من الشعب الفلسطيني – بأهلهم المهاجرين وشوقهم إليهم ز ومثل هذا الشعر كثير ، بل إن بعضه يشير إلى الجهات التي هاجر إليها اللاجئون ، حيث توجهوا شمالاً إلى لبنان وسورية ، فيقول محمود درويش :

وأنا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمال

أما سالم جبران فيتوجه من قريته الجليلية البقيعة ، إلى صفد ، أكبر مدن الجليل الفلسطيني ، فيصدمه غياب الأهل حتى ليبدو غريباً في صفد وهي غريبة مثله ، فيقول :

علام توجب الشوارع يا عربي علاما؟
إذا ما طرحت السلام فما من يرد السلاما
لقد كان أهلوك يوماً هنا،
وولوا فلم يبق منهم أحد

وحين تأتي فدوى طوقان ، بنت نابلس المحتلة حديثاً عام ١٩٦٧ ، يدور حوار شعري مرير بينها وبين محمود درويش الذي يؤكد لها باسم أهلنا الباقين في الوطن ، أنهم لم يكتبوا شعراً في الحنين إلى الوطن ، كما فعل الشعراء الفلسطينيون ، لأن هؤلاء لم يهاجروا . بل إن الوطن قد ظل في داخلهم كما أنهم فيه :

نحن في حل من التذكار فالكرمل فينا
وعلى أهدابنا عشب الجليل
لا تقولي ليتنا نرحل كالنهر إليها ، لا تقولي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نحن في لحم بلادي وهي فينا

أما سميح القاسم فيتماسك ، ويعزي نفسه وقومه ، عن الانقطاع القسري الـــذي حجـــبهم عـــن العرب إلى حين فيقول :

مثلما تنبض في الأرض الخصوبة

هكذا تنبض في قلبي العروبة

إلا ان خريطة الهجرة دائبة الحركة . فمحمود درويش وتوفيق فياض ، مثلاً ، كانا مـــن أهـــل الداخل فاصبح أحدهما في الجزء المتاح من الوطن والثاني في الشتات وعز الدين المناصـــرة ومي صايغ ، مثلا ، كانا من أ هل الضفة والقطاع فأصبحا في المنفى ، وهارون هاشم رشـــيد ويوسف الخطيب كانا في فلسطين غير المحتلة فلبثا في أرض الشتات ،وأنا كنت لاجئـــا منـــذ النكبة فأصبح إسمي ، لا مؤاخذه ، عائداً في الجزء المتاح من الوطن ، وهكذا وهكذا .. وهـــذا التغير في حيثية الإقامة واللجوء من شأنه أن ينعكس على طبيعة الخطاب الأدبـــي وإن كـــان جوهر المشكلة واحداً ، فالمواقع تتغير إلا واحداً يسري عليه الخط البياني للبوصلة التي تشير باستمرار إلى الأرض الصغيرة ذات السبعة والعشرين ألف كيلو متر مربع ، واسمها فلسطين

من النكبة إلى العودة

لا يكفي أن نتأمل دورة الزمن ، لنرصد آلية الانتقال في الوعي الفلسطيني العام ، من جرح النكبة إلى أمل العودة . فقد انفتح الجرح بوقوع النكبة ، كما سبقت الإشارة إلى أن ثقافة العودة قد بدأت تلقي بذرتها في تربة الوعي منذ اليوم الثاني لوقـــوع النكبـــة ، ولهـــذا يمكـــن ملاحظة التزامن الذي يربط اللحظتين معاً ، وهو ما يفسر تداخل الأجيـــال الفلســـطينية فـــي العملية المؤسسة للمشروع الثقافي الفلسطيني ، بما يبطل نظرية وزير الخارجيـــة الأمريكـــي جون فوستر دالاس ، حول فلسطيني يموت بالشيخوخة ، يليه جيل تصرفه ظروف العيش في المنفى والضياع والمعاناة عن مواصلة خطاب العودة ، ما يمهد لأجيال جديدة تنشأ بعيداً عـــن سخونة الصراع فيبددها الشتات و النسيان.

والذي جرى أن التواصل والتداخل قد تكاملا بما منع حدوث الانقطاع بين ردة الفعـــل علـــى النكبة وتأسيس ثقافة العودة . لهذا كان طبيعياً للمـــؤرخ الموضـــوعي ، تصـــنيف " الفعاليـــة الثورية في النكبة " - وهذا التعبير هو عنوان كتاب للمفكر اللبناني د. نديم البيطار ، صاحب " الايديولوجية الانقلابية " بأنها مقدمة تاريخية للوعي الثوري الانقلابي في الحيـــاة العربيـــة بعامة ، الفلسطينية بخاصة ، و قد ظل هناك بين اللاجئين الفلسطينيين ، مـــن يكتـــب ويرســـم ويفكر من وحي النكبة حتى الآن ، بعد مرور زهاء ستين سنة عليها، كمـــا بـــرزت إشـــارات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثقافة العودة ، كما تقدم ، منذ اللحظات الأولى للنكبة ، وفي هذا رد على ثقافة متطيرة تخشى برودة جرح النكبة تمهيداً للنسيان . إلا ان هذا لا ينفي حلول نوع من الاختلاف الملموس في بعض أشكال الخطاب الثقافي الفلسطيني ، وهو اختلاف يتصل بعاملين : الأول هو مبدأ الاستجابة الثقافية للواقع الجديد والتعبير عنه ، من اللجوء ، إلى التماسك ، إلى بناء مجتمع المخيمات ، بكل ما يعنيه من حفاظ على التركة الوطنية والإرث القومي ، وصولاً إلى الثورة واستحقاقاتها الاجتماعية الاقتصادية الثقافية وأسئلتها السياسية . والثاني يتصل بطبيعة مستلزمات الحداثة التي اشتبكت بالوعي الفلسطيني العربي وتجلت في التعبير الثقافي . وهذان العاملان يتزامنان في حالة من الجدل ، ولا يكتفيان بالتعاقب والتطور الزمني في انساق متراصفة . خذ مثلا ، تجربة جبرا ابراهيم جبرا في الشعر - وهو ذو ثقافة مركبة ، عربية أنجلو سكسونية ، موسوعية – فترى أثر النكبة واضحاً مباشراً في عدد من قصائد مجموعته الأولى " تموز في المدينة " مثل " بيت من حجر – قبية – خرزة البئر – في بوادي النفي " ، وقد صدرت هذه المجموعة عام ١٩٥٩ ، أي بعد مضي عقد على النكبة ، حتى إذا وصلنا إلى مجموعته الأخيرة" سبع قصائد " التي صدرت عام ١٩٨٩ ، لم نجد قصيدة واحدة تتناول الجرح الفلسطيني مباشرة . لكن هذا لا يعني أن الجرح الفلسطيني قد خفتت حدته خلال ثلاثين عاماً . ولكن وعي جبرا الفني – وبالتالي خطابه الثقافي – هو الذي تطور ، بدليل أن فلسطين أصبحت أكثر إلحاحاً وحضوراً في أدبه الروائي خلال الفترة التي رافقت وتلت صدور مجموعاته الشعرية ، فقد أصدر عام ١٩٦٠ بالانكليزية ، روايته " صيادون في شارع ضيق " التي ترصد صمود هذا المثقف الفلسطيني المهاجر من بيت لحم إلى بغداد ، حيث لم ينس مأساته الوطنية بل فرض حضوره وحضور قضيته بالتالي على كل من حوله . وهذا ما أكده عام ١٩٦٠ ، من خلال شخصية اللاجئ الفلسطيني المثقف المتفوق ، وديع عساف في رواية السفينة ، مفضياً إلى لحظة نوعية عام ١٩٧٨ في رواية " البحث عن وليد مسعود " يفرضها هذا المثقف المقدسي اللاجئ الذي يملأ الدنيا ويشغل الناس ويقدم ابنه مروان شهيداً على مذبح فلسطين . أما في عام ١٩٨٦ فيطلق من خلال رواية " الغرف الأخرى " صرخة فلسطينية تدعو إلى الاعتراف به وبهويته لا بمجرد تقدير موهبته وثقافته .

وليس جبرا إلا مثلاً ، فحتى الشعراء والأدباء الذين قدمتهم الثورة الفلسطينية أو أسهمت في بلورة شخصيتهم الأدبية ، بدأ مشروعهم بخطاب ساخن يحدد الأشياء بأسمائها ، ومع مرور الزمن واصلوا خطابهم ونداءهم الثقافي الوطني لكن بأدوات جديدة تتناسب والأجناس الأدبية التي يتداولونها ، فليس المهم أنهم يكتبون من وحي فلسطين وهو تحصيل حاصل ، بل كيف يكتبون لفلسطين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدب وفن

حين استوى المشهد الثقافي الفلسطيني ، علي أيدي أدبائه وفنانيه ومفكريه ، منذ العقد الأول من عمر النكبة ، كان من الطبيعي أن تكون هجرة الفلسطينيين وشقاؤهم في المنافي وذكرياتهم عن الوطن ولحظات التشرد ، هي المعين البكر الذي ينهل منه هذا المشهد ، فإلى جانب قصائد أبي سلمى وحسن البحيري في الحنين والتفجع ، ظهرت قصائد خليل زقطان الذي كان يعمل في وكالة غوث اللاجئين ، ما جعله على تماس يومي مع مشكلات اللاجئين وأوداعهم الاجتماعية ، فكانت مجموعته " أصوات الجياع " معبرة ، بأسلوب واقعي كلاسيكي ، عن تلك الأوضاع . وكان معين بسيسو المنتمي إلى المدرسة الواقعية الإشتراكية في الأدب والفن ، مصوراً شعرياً أميناً لجدل النكبة والغضب في قصائده الأولى . أما يوسف الخطيب وكمال ناصر وهارون هاشم رشيد فقد كان خطابهم القومي مفتاحاً لقصائدهم المنادية بالتحرير والعودة والثأر ، حتى أن الحركات السياسية البسيطة كانت تستشهد بمقاطع أشعارهم وتوزعها ضمن المنشورات الوطنية شبه السرية ، كقول هارون هاشم رشيد :

أخي مهما ادلهم الليل سوف نطالع الفجرا
فلسطين التي ذهبت سترجع مرة أخرى

والطريف أن إحدى الحركات السياسية قد وزعت مع المنشورات قصة " فلسطيني " لسميرة عزام ، وهي قصة لاجئ يبيع ما فوقه وما تحته ليحصل على جنسية إحدى الدول العربية حتى يتمكن من العمل الذي كان محظوراً على اللاجئين . لكنه حين حصل على البطاقة ، عز عليه أ ن يرى في خانة الجنسية أنه غير فلسطيني ، فمزق البطاقة مفضلاً هويته الوطنية ، هو اللاجئ العاثر ، على لقمة العيش الموعودة .

ومن موقع آخر يقدم إسماعيل شموط وتمام الأكحل رسومهما الأولى التي تصور لوعة الاسى على وجوه اللاجئين ، وتتطور هذه اللوعة حتى تتحول إلى معاناة في الخيام وترقب ليوم العودة . وسرعان ما يتحول هذا الانتظار إلى نوع من فانتازيا المأساة بريشة أمثال مصطفى الحاج ، الذي سبب القشعريرة للمتفرجين وهم يطلون في الرسم على المرأة التي تلد وسط خيمة اللجوء ، وذئاب حقيقية تحيط بها شاحذة أنيابها لافتراس مولودها الذي لم يكد يخرج من الرحم . وسرعان ما نشأ فن تشكيلي فلسطيني يجترح مختلف أشكال التعبير والمدارس لتقديم التراجيديا الفلسطينية . ومع إنطلاقة الثورة الفلسطينية عمد التشكيليون إلى فن الملصق الذي أجادوا فيه وحققوا نقلة نوعية . وقد وضع شفيق رضوان – وهو رسام متميز أيضاً – كتاباً يعد مرجعاً في فن الملصق ، أما الرسامان اسماعيل شموط وكمال بلاطة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد وضعا كتابين نوعيين للتعريف بالفن التشكيلي الفلسطيني ، ومثلهما فعل الشاعران عز الدين المناصرة ومحمد الأسعد ، ولم يكتف الفلسطينيون بالرسوم ، بل عمدوا الى توظيف الخط العربي . ولا تزال كلمة فلسطين بريشة غسان كنفاني آية في الفن التشكيلي ومن الأعمال المتميزة للشهيد ذي المواهب المتعددة .

وقد برز دور الخط عفوياً في رسوم الكاركاتير الفلسطينية ، حيث كان اللعب بالألفاظ من جهة ، وشكل الحرف من جهة ثانية ، يسهمان في توصيل الفكرة المرسومة ، وهي غالباً فكرة تتميز بالرفض والنقد المر للواقع المركب فلسطينيا عربيا ودوليا . وكان أمراً له دلالة أن رسامي الكاركاتير البارزين ، قد اتخذ كل منهم رمزاً يخص اللاجئين والعودة ، فابتكر الشهيد ناجي العلي شخصية حنظلة ، وهو الطفل الفلسطيني اللاجئ بثيابه المهلهلة وقد أعطى للقارئ ظهره احتجاجاً على ما يشهد . أما بهاء البخاري فقد ركز على اللاجئة الفلسطينية ذات المنديل المتميز وردود الأقفال المعبرة عن واقع الحال ، فيما انفردت أمية جحا بتثبيت مفتاح البيت في كل رسم من رسومها . ومعروف أن المفتاح رمز واقعي نشأ بعد ملاحظة أن الأمهات الفلسطينيات اللاجئات يحتفظن بمفاتيح بيوتهن الأصلية التي أخرجت منها قهراً وعنوة يوم النكبة .

وإذا كنا نذكر للشاعر محيي الدين الحاج عيسى مسرحيته الشعرية المبكرة " أسرة شهيد " التي تقدم جانباً من معاناة اللاجئين الفلسطينيين ، فسوف يمدنا الفلسطينيون اللاحقون بأعمال مسرحية ، في هذا الموضوع ، مثل التصفية لنواف أبي الهيجاء ، وشعب لن يموت لسعيد المزين ، والحلم الفلسطيني لرشاد أبي شاور ، والطريق لنصر شما ، وتميزت هذه الأعمال بنبرة حماسية من وحي جرح النكبة واللجوء والتأهب على طريق الثورة ، أما معين بسيسو فقد وضع نصب عينيه مشروعاً للمسرح الشعري ، فكانت مسرحيته " العصافير تبني أعشاشها بين الأصابع " هي الخريطة الفنية لمسرحية الكرسي التي أخرجها خليل طافش في عمل فني يؤكد استعصاء اللاجئ الفلسطيني على التسليم بالإعاقة التي كانت رمزاً لمعاناة الفتاة ، وإيذاناً بالنهوض الفلسطيني بعد تخلص الفتاة من تلك الإعاقة ، ولسميح القاسم مشروعه المسرحي الذي نذكر منه " المؤسسة الوطنية للجنون " مع فارق ذي دلالة ، هو أن المهاجرين في هذه المسرحية ليسوا فلسطينيين ، بل هم اليهود العراقيون الذين جيء بهم إلى فلسطين ، فشعروا بأن المعبراه - وهو المكان الذي كانوا يضعونهم فيه مع بداية الوصول – ليس إلا مؤسسة للجنون ، وفانتازيا قلب المشهد إلى نقيض ما يحدث في الواقع ، قد أغرت زين العابدين الحسيني بمسرحية " خطف طائرة فلسطينية " و هي رد على الضجة التي اثيرت حول اختطاف الفلسطينيين للطائرات ، بأن الطائرة الفلسطينية التي ترمز للوطن ، هي التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعرضت للاختطاف ، وسيظل الفلسطينيون هائمين على وجوههم ، قلقين مقلقين ، حتى يستعيدوا طائرتهم ويصلوا بها إلى بر الأمان .

بعد ذلك سيظهر الفنانون الفلسطينيون من أعماق المخيمات ، ليلفتوا أنظار العرب بأعمالهم المسرحية فأصبح غسان مطر و أديب قدورة ويعقوب أبو غزالة ولينا باتع وعبد الرحمن أبو القاسم وزيناتي قدسية وتيسير ادريس وزهير حسن ومفيد أبو حمدة وزهير النوباني وحسين أبو حمد ، وغيرهم كثير من نجوم المسرح العربي ، اما هاني السعدي فإضافة إلى التمثيل ، برز في كتابة السيناريو التلفزيوني . وهي مناسبة للإشارة إلى الشاعر وليد سيف الذي قدم " التغريبة الفلسطينية " كأفضل عمل تلفزيوني عربي يعرض الملحمة الفلسطينية منذ مأساة اللاجئين يوم النكبة إلى يومنا هذا .

وتجدر الإشارة إلى أن دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية ، قد وضعت في برنامجها ، منذ عام ١٩٧٧ ، جمع المواهب الفلسطينية من المخيمات وأماكن الشتات ، بالتعاون مع الملتزمين من الفنانين العرب ، لتقديم مسرح فلسطيني لافت ، وكذلك العمل في مجال التلفزيون ، فأنتخب زهاء عشر مسرحيات حصل بعضها على أكبر الجوائز ، مثل " خيوط من فضة " وثلاثة مسلسلات تلفزيونية هي " بأم عيني " و " عز الدين القسام " و " بير الشوم " . أما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فقد انفردت بتقديم أول فيلم روائي طويل من انتاج فلسطيني هو " عائد إلى حيفا " عن قصة غسان كنفاني ، وفيه صدمة اللاجئ الفلسطيني عندما يعود إلى حيفا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، فلا يجد ابنه الذي أضاعه غداة النكبة ، ويبقى عليه أن يسمح لابنه الأصغر بالالتحاق بالثورة بعد أن كان يخاف عليه ويدخره للزمان ، وقد نشير إلى فيلم روائي قصير ، أنتخبته دائرة الثقافة الفلسطينية ، بعنوان " الناطور " عن قصة لأكرم هنية ، وفيها يظهر طلاب المدارس في المخيمات يصبغون الجدران بالشعارات المناهضة للاحتلال ، ويتعرضون للضرب المبرح في مشهد مؤثر ، حتى يفرضوا على ناطور المدرسة أن يثوب إلى مدرسة ويكتب الشعارات التي كانوا يكتبونها على الجدران .

ودخلت الأغنية إلى معترك المشروع الثقافي الفلسطيني ، منذ أن كتب هارون رشيد لفيروز ، سنرجع يوماً ، ولماذا نحن أغراب ، حتى إذ انطلقت الثورة الفلسطينية ، وفرت لها مصر عبد الناصر اول إذاعة مستقلة ، وكان يديرها المربي الأستاذ فؤاد ياسين ، ونجح تعاون الشعراء الفلسطينيين مع الموسيقيين المصريين في تقديم نوعية جديدة من الأغاني كانت فتحاً في هذا الفن الجديد ، وآثر الشعراء محمد حسيب القاضي ، وصلاح الدين الحسيني ، أبو الصادق ، وأبو هشام سعيد المزين ، فتى الثورة ، أن يقدموا نصوصهم القوية المؤثرة للجمهور بلا توقيع ، فكان أبناء المخيمات يخرجون في المسيرات يرددون هذه الأغاني قبل أن يعرفوا مؤلفيها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وستحقق الأغنية الفلسطينية لوناً آخر من خلال فرقة العاشقين ، التي قدر لها ملحن ومـــوزع موهوب، هو حسين نازك الذي استلهم الفلكلور الشعبي وربطه بالنوتة الحديثة ، فحقق نتـــائج باهرة ، وفرقة العاشقين هذه أسستها دائرة الثقافة الفلسطينية من موهوبي أبناء مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين بالتعاون مع فنانين عرب ملتزمين من غير الفلسطينيين . وحـــين كانـــت هذه الفرقة تغني :

كبروا بالغربة لولاد وما نسيوا ريحة لبلاد

رغم المنفى والإبعاد فلسطين لأهاليها

فقد كان اللاجئون الفلسطينيون في مختلف أماكن الشتات يشعرون أنها فرقة تـــؤدي نشـــيدهم الوطني الشعبي ، وتقص من خلال مغناة الانتفاضة التي كتبها أبو الصادق – وكـــذلك ســـيرة ظريف الطول – قصة النكبة واللجوء واكتشاف النار من خلال الثورة .

إلا أن العاشقين لم يكونوا وحدهم في الساحة الفلسطينية ، فهناك فرق ناجحة مـــؤثرة ، مثـــل الجذور التي كتب لها خالد أبو خالد نصوصاً لاقت نجاحاً كبيراً ، وكتب لها نـــاهض الـــريس قطعاً شعرية غاية في الجمال تتغنى بمختلف المدن الفلسطينية وتاريخها وتراثهـــا ، وتتضـــمن بطبيعة الحال حنيناً إلى هذه العودة ويقيناً تاريخياً بعودة أبنائها اللاجئين اليها ، وهناك فـــرق فنية عديدة أثبتت وجودها مثل فرقة الأرض ، والحنونة ، و الفالوجا و غيرها ...

إن الإشارة إلى هذه الأعمال الفنية ، على كثافتها وتعددها ، لا تعنـــي أنهـــا كـــل مـــا أنتجـــه اللاجئون الفلسطينيون ولكنها مقدمة لمتابعة هذا المشروع الذي كان من شأنه إبقاء الأمل فـــي قلوب اللاجئين ، ولو سألنا عن تلخيص علاقة اللاجئين بالأدب والفن ، لقلنـــا إنـــه قســـمان : الأول هو ما أنتجوه من أدب وفن مرئي مسموع في إطار قضية العودة . والثاني هو ما جعل فلسطين والتحرير والعودة مادة أدبية فنية يومية حتى لو لم يكتبها الفلسطينيون مباشرة .

وسنرى ، لاحقا ، كيف أسهمت لحظة اللجوء في دفـــع الفلســـطينيين التعريـــف بالحواضـــر والأحياء العربية غير الفلسطينية .

شعر وسرد

مع انطلاقة الثورة الفلسطينية ، عام ١٩٦٥ ، نشا نوع من الأدب الفلسطيني المركـــب ، ويشتمل ، كما تقدم ، على مختلف الأجناس الجمالية ، لكنه لم يكن نبتاً برياً بل جـــاء نتيجـــة المعاناة وتعبيراً عن سيرورة حياة ، وقد تكون تجربة غسان كنفاني نموذجا لتطور هذا الأدب ، من الفجيعة كما في رواية " رجال في الشمس " وقصص " عالم ليس لنا " إلى رصد تخمر الوعي ونضجه على نار هادئة كما في " أم سعد " و " عن الرجال والبنادق " . فأم سعد هـــي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ربيبة المخيم بامتياز . امرأة قوية بسيطة لم تكسرها الهجرة بل أكسبتها ، بموازاة قوة العزيمة ، خبرة وحكمة هما خلاصة وعي المخيم ، حتى أصبحت عبارتها الشهيرة " خيمة عن خيمة تفرق " مثلاً ذهبياً للوعي المتحول من الكمون والشكوى إلى الثورة والممارسة ، وهذا الوعي هو الذي يجعل " حامد يكف عن سماع قصص الأعمام " بل يصغي إلى صواب قلبه المؤدي إلى الاختيار الصعب . وإذا كان غسان في طليعة من قصوا شريط افتتاح هذا النوع من الأدب ، فاننا نستحضر ، لا الأسماء المعروفة وحسب ، بل التجارب التي نضجت على نارها الخاصة ، مثل نازك سابا يارد التي قدمت في روايتها " عزف على أوتار مقطوعة " ، شقيقتين لاجئتين ، إحداهما صدمتها الهجرة إلى حدود التنكر لفلسطينيتها والثانية نشأت غاية في العناد الوطني والتمسك بالانتماء الفلسطيني . وحين مرضت الأولى وأحاطت بها تلميذاتها اللبنانيات والفلسطينيات ، كان المرض فرصة لمواجهة الحقيقة وتأمل الواقع بما فيه الواجب الوطني ، فوجدت نفسها حيث يجب أن تكون . أما جبرا ابراهيم جبرا فقد منح شخصياته الروائية وعياً وطنياً مبكراً ، لمواجهة ما هو أكثر تعقيداً ، من مشكلة الهوية ، إلى الذكريات ، إلى الرمز المسيحي حتى كان استشهاد مروان ، وهو الابن الوحيد لوليد مسعود اللاجئ إلى العراق ، تعبيراً عن أن الثراء والثقافة لا يغنيان عن الوطن ، وكان مروان ، بشهادة زملائه الفدائيين ، يردد لحظة استشهاده ما يمكن أن يكون قدر صدر عن السيد المسيح على جبل الزيتون . فإذا اقتربنا إلى المخيمات أكثر فأكثر ، وجدنا كتاب الجيل التالي يثبتون الذاكرة عند لحظة الوعي المتفتح واكتشاف الذات الوطنية في المخيم . فهذا ما فعله رشاد أبو شاور في رواية العشاق ، ويحيى يخلف في " تفاح المجانين " وغسان كنفاني في " الأعمى والأطرش " والياس أنيس الخوري – وهو غير الياس خوري الكاتب اللبناني المعروف – في " طقوس المنفى " ومحمود شقير في " ظل آخر للمدينة " وغريب عسقلاني في " جفاف الحلق " وعارف أغا في " مخيم في الريح " وعبد الله تايه في " قمر بيت دراس " ، ورسمي أبو علي في قصة " لو كان إبراهيم هناك " ، وغيرهم . ولم يكن إقدام هؤلاء الروائيين على نبش الذكرى نوعاً من الحنين إلى الماضي القريب ، بل هو استلهام مستمر لأسباب المقاومة والتشبث بحق العودة حتى لو لم ترفع شخصياتهم شعارات سياسية مباشرة . ولن يكتفوا بذلك ، بل ستذهب المخيلة بهم إلى استذكار ما رواه الآباء عن سقوط البلاد ، تمهيداً لمرحلة النكبة ونشوء ظاهرة اللاجئين ، فنتوقف عند ذكريات جبرا ، من خلال شخصية وديع عساف في رواية السفينة كما يستوقفنا يحيى يخلف في " بحيرة وراء الريح " كشهادة روائية على سقوط قريته سمخ ، ورشاد أبو شاور " في أيام للحب والموت : ورسمي أبو علي في " الطريق إلى بيت لحم " . وغيرهم كثير . أما متشائل إميل حبيبي فيذرع فلسطين من الجليل إلى حدود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لبنان ليعود إلى حيفا سارداً علينا معاناة الفلسطينيين والمفارقات التي ألمت بهم خلال تلك الفترة العصيبة التي أصبحت جزءاً من التاريخ .

بعد ذلك سينتقل السرد القصصي الروائي إلى طور مواكبة الثورة بما يتضمنه من نقد واحتجاج على الأداء الوطني وعلى القهر الموضوعي الناجم عن ممارسات الاحتلال وبعض الأنظمة العربية ، فنقرأ ، مثلاً ، رواية " البكاء على صدر الحبيب " لرشاد ، و " نشيد الحياة " ليحيى ، و " بكاء العزيزة " لعلي عودة ، و " زمن دحموس الأغبر " لغريب عسقلاني ، و " قفص لكل الطيور " و " اقتلوني ومالكاً " و " عين اسفينة " لخضر محجز ، وغيرهم كثير ، فيما اشتقت سحر خليفة مشروعها الروائي من جدل علاقة الرجل بالمرأة من جهة ، ومن عثرات المقاومة وتطور أحوالها وصولاً إلى السلطة في الفلسطينية في مسيرة روائية تبدأ بالصبار وعباد الشمس مروراً برواية " باب الساحة " وصولاً إلى " الميراث " وقد يلجأ مفكر مثل د. هشام شرابي الى التعبير روائياً عن تشخيص واقع الحال في وصف الوضع الفلسطيني من المنفى إلى الداخل في رواية يتيمة هي " الرحلة الأخيرة " . وتنتشر القصص الفلسطينية القصيرة بكثافة لتغطية هذا الوضع بأساليب شتى ، فيكون هناك محمود الخطيب وفاروق وادي ومحمود شقير ومحمود الريماوي وأحمد السرساوي ومحمد سعيد نجم ونواف أبو الهيجا وأحمد عمر شاهين أما رشاد أو شاور ويحيى يخلف ورسمي أبو علي وزكي العيلة وغيرهم فقد واصلوا مشروعهم الذي يؤرخ ، قصصياً ، لهذه التجربة الفريدة المرة ، شهادة على أوضاع اللاجئين وانتماء إلى تجربتهم الفذة في المقاومة والاعتراض على الارتباك السياسي الذي قد يصل إلى حد التنازلات .

ولا يختلف الأمر مع الشعر الفلسطيني ، إلا في أنه أكثر الأجناس الأدبية انتشاراً ورواجاً . فالشعر ديوان العرب كما قررت العرب منذ القدم ، وعندما انطلقت الثورة الفلسطينية قبل أكثر من أربعة عقود ، كان الشاعر الفلسطيني قد بشر بقدومها في وقت مبكر ، أو أنه عاد ا نتاج لحظة الترقب والتحفز للانطلاقة ، كما في صرخة يوسف الخطيب :

لأبتدرن الصبح قبل اشتعاله وأورث في عمق السكينة زلزالي

تحديت أن شعبي يباع ، وأمتي شتات ، وأن أغلى الحصى قوت أطفالي

وسنلاحظ دائماً ، في الشعر كما في القصة والرواية ، أن التأكد من دنو ساعة الثورة ، كان مرتبطاً بتشخيص حالة النكبة من هجرة ، إلى معاناة في المخيمات ، الى انتظار ساعة الصفر ، بل ا ن الفدائيين الرواد الأوائل كان يجمعهم تعبير " بانتظار القمر " وهو ما جعلته الشاعرة مي صايغ عنوان روايتها الوحيدة التي تؤرخ فنياً لتململ الفلسطينيين ، لاجئين ومواطنين ، في قطاع غزة استعداداً للانطلاقة . وحتى الفلسطيني الأسير موضوعياً ، رهن الاحتلال منذ عام ١٩٤٨ ، كان ينتظر تلك البارقة حتى أنه انشد ، بلسان محمود درويش ، فور الانطلاقة :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما كنت أعلم أن تحت جلودنا ميلاد عاصفة وعرس زلازل
فإذا احترقت على صليب عبادتي أصبحت قديساً بزي مقاتل

ولسوف ينبثق الشعراء من وهج اللحظة الفلسطينية – ومن شقوق الصخر يطلعون – على حد تعبير نزار قباني في قصيدة فتح – فإذا بأسماء خالد أبي خالد ومحمد القيسي ومريد البرغوثي وعز الدين المناصرة ومحمد حسيب القاضي ووليد سيف وخيري منصور وعبد الكريم السبعاوي ، وغيرهم كثير جداً ، تواكب الثورة منذ فجر البدايات . وهؤلاء الشعراء جميعاً هم من اللاجئين وأبناء المخيمات ، وقد وصل بعضهم – يحضرني صخر أبو نزار وسليم الزعنون – إلى مواقع قيادية في صفوف الثورة ، و تميزت قصائدهم ، في البدايات ، بنبرة احتفالية وتذكير بواقع النكبة ، وسرعان ما سيظهر جيل لاحق يعبر عن مرحلة لاحقة ، ربما كان غسان زقطان وابراهيم نصر الله وزهير أبو شايب ويوسف أبو لوز ويوسف عبد العزيز ومحمد لافي ووليد الخزندار من رموز تلك المرحلة ، مع ملاحظة ظاهرة جديدة تستحق الانتباه ، هي أن معظم شعراء الجيل الذين واكبوا الانطلاقة ، اضافة إلى الأجيال التالية ، قد خفتت وتيرة الخطابة والمباشرة لديهم ، لسببين ، الأول – كما أشرت إلى ظاهرة جبرا في حينها ، ان متطلبات القصيدة الحديثة تختلف عن متطلبات السرد كالقصة والروائية . والحداثة على قطيعة مع الخطابية والتبشير ، فأصبح الشعراء يواصلون مشروعهم الشعري كفلسطينيين ولكن بأدوات جديدة واستشراف آفاق مختلفة ، أما السبب الثاني فيجب أن نملك الشجاعة الأدبية للاعتراف بالخذلان الذي لحق بالمثقفين إثر التنازلات السياسة التي كسرت الحلم ، والحلم في طليعة عناصر الشعر . وهو ما يفسر ظاهرة التذمر والغضب والنقد ، حيث يجد الشاعر نفسه في مواجهة المظلمة التاريخية العالمية التي لحقت بشعبة ، فيصف شاعر عربي بحجم أدونيس تلك المظلمة بأنها جناية بشرية :

باسم شعب شردته البشرية
سمني قنبلة أو بندقية

ولكنه يستدرك لحظة الانفعال ، ويحتال على اليأس بلغة التفاؤل ، فيغير الصياغة حتى يصبح القول : باسم شعب يرفع الشمس تحية . كذلك و يصطدم الشاعر – الفلسطيني أساساً – بالخذلان العربي الرسمي ليتحول إلى شاهد ومحرض على واقع عربي شامل . ولا ينتهي الغضب عند هذا الحدود. بل يتعداه إلى تبرم ، قد يصل إلى حد الرفض ، داخل البيت الفلسطيني ، أو إلى انسحاب من الخطاب المباشر ، وهو ما يجعل من الصعوبة بمكان أن يواصل الناقد المؤرخ متابعة مسلسل الأجيال في ديوان الشعري الفلسطيني ، لا بمعنى أن الشعراء قد استقالوا من هويتهم الوطنية ، بل لأن التغيرات الموضوعية والذاتية والفنية قد ألجأتهم إلى لغة جديدة ، ولما كان موضوعنا متصلاً بالهم المباشر من النكبة إلى ظاهرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللاجئين ، فقد انصرف اهتمام الشعراء ، المفجوعين بالسياسيين ، إلى تأكيد الهوية الفلسطينية ولكن عبر مسارات فنية قد لا تلبي عطش الثقافة السائدة المنحازة إلى التقريرية التي قد تصل أحياناً إلى حد إضاعة الخط الفاصل بين السياسة والفن .

إن هذه الملاحظة لا تعني اختفاء الخطاب الشعري الذي يتمثل أوضاع اللاجئين ، ويؤكد صيرورة الثورة بما هي مفتاح خلاص ، ولكنها تشير إلى أن لغة جديدة تتشكل بشروطها وأدواتها وصراعها لتثبيت مشهد ثقافي حديث .

على أن هذه الملاحظة الأخيرة ، المتصلة بآخر تحولات الشعر الحديث ، مرتبطة أساساً بالشعر العربي بعامة ولا تقتصر على الشعر الفلسطيني . وهي ما تعيدنا إلى العلاقة الأم بين الثقافة العربية والقضية الفلسطينية ، إذ لا يمكن تخيل هذه الثقافة بمعزل عن الجرح الفلسطيني ونستطيع أن نرصد هذا الارتباط العضوي من خلال قراءة الثورات والانقلابات والأفكار التي عصفت بالعرب منذ النكبة . وهو ما عبرت عنه جهود فكرية تصدرتها كتب مثل " الفعالية الثورية في النكبة " للبناني د. نديم البيطار ، و " العرب وتجربة المأساة " للسوري صدقي إسماعيل و " إسرائيل والأرض الموعودة " لليمنية أبكار السقاف و " الثوري والعربي الثوري " للعراقي عزيز السيد جاسم ، وصولاً إلى ثلاثية " المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل " لمحمد حسنين هيكل الذي قال بحق ان الصراع العربي الصهيوني قد أسال من الحبر بقدر ما أسال من الدم .

وإذا تخففنا قليلاً من متابعة التسلسل التاريخي ، وقعنا على عدد كبير من الروايات والقصص العربية التي تعرض للمشاركة في حروب الصراع العربي الصهيوني ، وتأثر المقاتلين بالنتائج التي انعكست على الداخل العربي مثل رواية " رد قلبي " ليوسف السباعي ، و" طواحين بيروت " لتوفيق يوسف عواد " و " جيل القدر " لمطاع صفدي ..وليست هذه إلا عينات من أول ما يطفو على الذاكرة ونلاحظ أنها روايات من مصر وسورية والاردن ولبنان ، مع أنه ما من بلد عربي إلا وانعكست عليه القضية الفلسطينية بشكل أو آخر . لنصل إلى ذروة هذه الروايات ، ونعني بها " باب الشمس " اللبناني الياس خوري وهي ملحمة كبيرة تس تحق صفة رواية النكبة والثورة .

وننتقل إلى موضوعنا الرئيس ، وهو الخاص باللاجئين الفلسطينيين ، فنقع ، في وقت مبكر نسبياً على قصيدة " قافلة الضياع " التي تعد من أشهر قصائد بدر شاكر السياب ومن أهم القصائد المؤسسة للشعر العربي الحديث :

أرأيت قافلة الضياع ، أما رأيت النازحين

الحاملين على الكواهل من مجاعات السنين

آثام كل الخاطئين ؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد ارتفع الشاعر بالقضية من مستواها السياسي إلى مستوى تاريخي يتصل بمبدأ العدالة في الوعي البشري ، م عبراً عن الظلم الذي لحق بالفلسطينيين :

شيء يقول هنا الحدود

هذا لكل اللاجئين وكل هذا لليهود

ويثبت أدونيس لحظة النكبة من خلال وعي اللاجئين الفلسطينيين لدورة الزمن ، فهم يستيقظون ويوقظون العرب مع بداية العام ، كأن السنة هي فاتحة عمر الفاجعة :

في أول العام الجديد – قالت لنا – آهاتنا قالت لنا :

- شدوا الرحال إلى بعيد – أو فاسكنوا خيم الجليد –

فبلادكم ليست هنا ..

وبمثل هذا الخطاب ينطلق صوت عبد الباسط الصوفي في قصيدة له مشهورة بعنوان " اللاجئات " ، وإذا كان مثل هذا الشعر المتفجع قد ساد مجمل الخطاب الشعري العربي الحديث في بداياته ــ فإننا نلاحظ أنه لجأ إلى الموضوع العام : القضية ، مأساة اللاجئين ، حتمية العودة ، وهذا ما نجده في شعر السوداني محمد الفيتوري ، والمصريين صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ونجيب سرور وأمل دنقل ، واليمني عبد الله البردوني ، والجزائري أبي القاسم خمار ، واللبناني خليل حاوي الذي جعل من المفاتيح التي يخبئها اللاجئون ، رمزاً للعودة إلى البيوت المنتظرة ، وقد طال بها الانتظار :

صدئت كل المفاتيح بأيدي اللاجئين

بل إن شعراء من أمثال نزار قباني ومظفر النواب وممدوح عدوان ، وغيرهم كثير كثير ، لم يتوانوا عن تقديم العرب إلى محكمة التاريخ بتهمة التقصير الفادح الفاضح ، والأمثال أشهر من أن يشار إليها ، ولكن يستوقفنا مظفر لأنه تجاوز الأنظمة إلى محاكمة حتى القائمين على النضال الوطني الفلسطيني لأنهم لم يواجهوا الحكام العرب بما يستحقون :

تنادت فلما انتضى فارس سيفه ذبحته اتفاقاً

وأوجع من قاتل يمسح النصل ،

ان القتيل يموت نفاقا

ويذهب ممدوح عدوان إلى أبعد من هذا ، فينهي مسرحيته – وهو الشاعر العربي السوري – وعنوانها " لو كنت فلسطينيا " بأن جعل الفدائيين الفلسطينيين المحاصرين يوجهون بنادقهم إلى جمهور المتفرجين ، بمعنى أن الجميع متهمون ، بمن فيهم أولئك الشهود الذين لا يفعلون شيئاً ذا جدوى على مستوى الوطن العربي . وهو ما فعله سعد الله ونوس بقدر من العقلانية المشوبة بالفاجعة في مسرحيته " حفلة سمر من أجل ٥ حزيران " و " الاغتصاب " . فيما اهتم الفريد فرج ، الكاتب المسرحي المصري المتميز ، بعرض

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بانورامي لمأساة فلسطين واللاجئين في مسرحيته " النار والزيتون " وقد طور اللبناني د. سهيل ادريس هذه اللحظة في مسرحية " زهرة النار " فجعل اغتصاب الفتاة رمزاً لاغتصاب فلسطين ، وارتباط شرف العرض بشرف الأرض ، وهو ما عبر عنه غسان كنفاني ببلاغة يوم قال : أخطأ آباؤنا إذ هربوا خوفاً على الشرف تحت شعار : الأرض ولا العرض ، وفاتهم أن الأرض عرض .

إلا أن العناوين العامة إذا كانت تتيح للكاتب العربي أن يتعاطف مع اللاجئين ومجمل القضايا العدالة ، فإنها قد تجد بعض المتسع في الشعر والمسرحيات الرمزية ، أما القصص والروايات الواقعية فنحتاج إلى معلومات قد لا تكون جاهزة دائماً للكتاب وأذكر لهذه المناسبة سؤالاً وجهته إلى نجيب محفوظ عام ١٩٧٧ عن القضية الفلسطينية في أدبه الروائي فقال : إن مصيرنا مرتبط بمصير هذا الصراع ، ولكن لا فائدة من إحضار شخصية عربية ، مصرية مثلاً ، بعد ان أمنحها بطاقة هوية فلسطينية لتعبر عني ، لأن تلك الشخصية ستكون مصرية حتى لو استعرت لها لهجة من عندكم ، على أنني سأذكر للروائي العربي الكبير نجيب محفوظ أنه ختم روايته " حب تحت المطر " ببارقة أمل مبعثها مرور شاب أمام المثقفين المهزومين في المقهى ، فيستبشر أحدهم قائلاً : أنه أبو النصر الكبير .. الفلسطيني الفدائي الذي نعول عليه .

وأبو النصر هذا ، هو الذي نطق باسمه الشاعر اللبناني فؤاد الخشن داعياً إلى المشاركة والممارسة :

وفلسطين التي أعطيتها
يوم اطلاق الهتافات فمك
أعطها الآن دمك ..

وهكذا ظل الجرح الفلسطيني ومأساة اللاجئين هاجساً عربياً ينعكس في الثقافة العربية بتجليات مختلفة .

والفلسطيني - العربي

على أن اللحظة الفلسطينية العربية ، لم تقتصر على حج متبادل بين العرب وفلسطين ، وإنما هي زمن عضوي متأصل . فقد يحدث ، في الثقافة ، أن تزار عاصمة أو حاضرة ، فيتأثر الزائر بما يرى فيكتب ما كتبه البحتري في إيوان كسرى مثلاً . ولكن العربي كان أكثر من ذلك حين يتعلق الأمر بفلسطين ، فقد كان الغزاة يذبحونه من عنقها ، على حد تعبرير شاعر سوري ، والفلسطيني لم يكن سائحاً ، بدوره ، في وطنه العربي الكبير بل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو العربي التائه الذي سيتنقل من قطر إلى قطر ، يقيم هنا تارة ، ويدخل السجن هناك تارة ، يشارك في مسيرة حيناً ، أو يطبع كتابا حيناً آخر . ولأن النكبة قد فرضت على هذا اللاجئ العربي التائه أكبر عدد من الهجرات العربية ، أو أطول وقت في زمن الهجرات القصيرة – والتعبير للكاتب السوري وليد إخلاصي ، فقد كان ممكناً وطبيعياً ومتوقعاً ، أن تترك الأمكنة العربية أثرها في الزمان الفلسطيني ، أو يترك الفلسطيني أثره في المكان .

هكذا وجد الفلسطيني التلحمي ، جبرا ابراهيم جبرا ، نفسه في بغداد بعيد النكبة ،فكان زائراً مقيماً إلى حين ، حتى إذا كتب روايته " صيادون في شارع ضيق " وجد بغداد حاضرة في روايته إلى حد أن فازت ببطولة المكان . وهو لم يصف شوارع ومعالم أثرية ، بل عايش بشراً وثقافة وتقاليد ، وتزوج هناك وأنجب ، فكان طرفاً في معادلة عاصمة الرشيد . ولم تكن تلك بيضة ديك ، بل ظهر أثر بغداد أيضاً ، قوياً ساطعاً ، في روايته " البحث عن وليد مسعود ".

وبعد عقد من الزمن أو يزيد ، سيجد يحيى يخلف ، الفلسطيني الجليلي ، ابن سمخ وطبريا ، نفسه في الجزيرة العربية ، حيث أقام بضع سنوات مدرساً هناك ،فلم يكن مجرد طالب رزق – على مشروعية ذلك – بل شارك ورأى وراقب عن كتب ، فكانت النتيجة روايته " نجران تحت الصفر" التي تعد بإجماع النقاد رواية الجزيرة العربية في القرن العشرين .

ومثله فعل جمال جنيد ، الفلسطيني اللاجئ من الجليل إلى سورية ، فالعامل فيما بعد ، في السعودية ، حيث كتب روايته " الأخدود " التي أضافت لمسة شخصية إلى الفضاء العربي هناك ، وهو ما عمقه ابراهيم نصر الله ، الفلسطيني اللاجئ في الأردن ، المدرس إلى حين ، في السعودية ، وكانت النتيجة روايته " براري الحمى " التي استوت عملاً من عمق الجزيرة العربية بابعاد تتراوح بين عبث العالم وقلق كافكا لكن بطبيعة فلسطينية .

أما أكرم شريم ، ابن قلقيلية ، وأحمد قبلاوي ، العكاوي المولود في حيفا ، فقد عاشا في سورية حتى كادا يصبحان ، على مستوى العلاقات واللهجة اليومية دمشقيين ، فكان الأول رائد من قدموا شخصية دمشق في المسلسل التلفزيوني ، وكان الثاني من أبرز كتاب المسرح الشعبيين الذين نهلوا من شخصية دمشق القديمة ، حتى ليصعب على المتلقي العادي غير المطلع أن يظنهما إلا سوريين من وسط حي الميدان في دمشق .

وهذا ما فعله أحمد عمر شاهين ، ابن يافا العريق ، الذي قضى بضعاً وثلاثين سنة من عمره في القاهرة ، فكانت روايته " رجل في الظل " رواية مصرية قاهرية حتى لتكاد تدلك في العتبة على ما لا يستطيع ابن شبرا أن يدلك عليه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما عز الدين المناصرة ، ابن بني نعيم ، الخليلي الفلسطيني الكنعـــاني ، فقبـــل أن يغـــادر الجزائر ، بعد سنوات غنية قضاها فيها ، كتب قصيدته " حيزية " التي تكاد تكون أشـــهر قصيدة تقدم الجزائر عادات وتقاليد وحضوراً شعبياً ذاهباً إلى الجذور في العمق العربي .

وتترك بيروت في الفلسطينيين الذين قصدوها وعاشوها خلال سنوات الجمر ، أثراً عميقاً قد يكون أوضح ما يكون في كتاب ذاكرة للنسيان ، وفي ملحمة مديح الظل العالي للشاعر محمود درويش الذي جعل للبن العربي طعماً متميزاً لا في ثقافتنا القومية وحسب ، بل في الدنيا بأسرها ..

وتتعدد الأمثلة ، فحيث حل اللاجئ الفلسطيني في ساحة عربية كان له أثر هناك ، ولســـان حاله ما قال محمود درويش يوماً : كل البلاد بلادنا ونصيبنا منها بريد ... علـــى أننـــا لا نستهين بهذا البريد ، فمنه وإليه طارت رسالة فلسطين مؤكدة أنه ما ضـــاع حـــق وراءه مطالب . ونحن عرب ، لا لأننا نرغب في ذلك وحسب ، بل لأننا كذلك .. وتلك أعمالنـــا تدل علينا ...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com